الاستدعاء السّياقي في القرآن الكريم "مقاربة تحليلية"

أ.د. فايز مد الله الذنيبات* د. أحمد عيد الكريم الملقي** د. حسين عبد الكريم البطوش***

تاريخ وصول البحث: 2025/1/6م تاريخ قبول البحث: 2025/4/27م

الملخص

خلفية الدراسة ومشكلتها: فاعليّة الاستدعاء السياقي، والاستيفاء، والمحور الدلالي في تفسير ظاهرة تكرار القصص في القرآن الكريم.

الأهداف: تحاول الدراسة تقديم مفهوم الاستدعاء السياقي، وكذلك مفهومي الاستيفاء، والمحور الدلالي - وهما من توظيف الباحثين - وتطبيق هذه المفاهيم على عيّنة من الآيات القرآنية التي تضمّنت تكرار القصص في القرآن الكريم من أجل تفسير هذه الظاهرة من خلال استعراض المحور الدلالي الخاص بكلّ سورة وردت فيها القصّة المخصوصة، ثم تفسير سبب الاستدعاء وتحليله بناءً على ما يعرضه المحور الدلالي والاستيفاء.

الطرق المستخدمة: تتبع الدراسة المنهج الوصفي التحليلي القائم على استدعاء السياقات البلاغيّة للظاهرة وتحليلها.

النتائج: خلصت الدراسة إلى أن جزءاً من إعجاز القرآن لا يكمن في نظمه فقط، بل في انتظامه الذي يتشعب طولاً وعرضاً، ويتجاوز الآية والسورة إلى كليّة النصّ القرآني. وأن معرفة المحور الدلالي لأي سورة كفيل بتفسير مسارات المعنى داخل السورة نفسها. وأن مفهوم الاستدعاء في القرآن مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحور الدلالي للسورة. وأن مفهوم الاستيفاء من شأنه تفسير سبب الاختيار في القرآن الكريم وسبب الاستدعاء أيضاً.

التوصيات: أوصت الدراسة المهتمين بالوقوف على مفهوم التكرار في القرآن الكريم من حيث دقّة استدعائه ومراعاة المحور العام للسورة الذي من شأنه أن يبرر للدّارس سبب توظيف التكرار واستدعائه

.

الكلمات المفتاحية: الاستدعاء السياقي، الاستيفاء، القصص القرآني، المحور الدلالي.

* أستاذ دكتور، قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية. **أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

***أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

Contextual Recall in The Holy Qur'an
An Analytical Approach

Abstract

Background and problem of the study: The effectiveness of contextual recall, interpolation, and the semantic axis in explaining the phenomenon of repeating stories in the Holy Qur'an.

Objectives: The study attempts to present the concept of contextual recall, as well as the concepts of interpolation and the semantic axis - which are employed by researchers - and apply these concepts to a sample of Quranic verses that include the repetition of stories in the Holy Qur'an in order to explain this phenomenon by reviewing the semantic axis of each surah in which the specific story appears, then explaining the reason for the recall and analyzing it based on what the semantic axis and interpolation present.

Methods used: The study follows the descriptive analytical method based on recalling and analyzing the rhetorical contexts of the phenomenon.

Results: The study concluded that part of the miraculous nature of the Qur'an does not lie in its arrangement only, but rather in its regularity, which is diverse in length and breadth, and goes beyond verse and surah to the entirety of the Qur'anic text. Knowing the semantic axis of any surah is sufficient to explain the paths of meaning within the surah itself. The concept of summons in the Qur'an is closely linked to the semantic axis of the Surah. The concept of interpolation would explain the reason for selection in the Holy Qur'an and the reason for summoning as well.

Recommendations: The study recommended those interested in understanding the concept of repetition in the Holy Qur'an in terms of the accuracy of its recall and taking into account the general focus of the surah, which would justify to the student the reason for employing repetition and recalling it.

Keywords: Contextual Recall, Interpolation, Quranic Stories, Semantic Axis.

المقدمة:

تنطلق هذه المقاربة من تصوراتٍ ثابتة منها: أن ما بين دفتيّ المصحف الكريم يكتنز أنواعاً من الإعجاز يصعب حصرها ويدخل في عدادها ما نطلق عليه: الانتظام العميق، وهو: الترابط الدلالي اللامتناهي في دقّته. وأن آيات السورة الواحدة تلتئم كلّها حول محور وتنجذب إليه بطرق الاستدعاء الدلالي أو التقاطع. وأن لكلّ سورة بِنيةً تَصوُّريةً قائمةً على قضيّة ما، وعادة ما تكون هذه القضية حاضرة في مستهلّ السورة. ويتمّ استدعاء الموضوعات القائمة على علاقة المشابهة معها بناءً على الاستدعاء السّياقي. وليس هذا كلّه موجوداً في ظاهر النصّ ومكشوفاً لكافّة المتلقين، وليس من صفات عظمة هذا القرآن أن يكون سطحياً في كلّيّاته، وإنما يكتنز أضعاف ما يظهر منه. وإن لم يكن كذلك لتسرّب الملل إلى القارئ عند معاودة القراءة. وقد جعل ربُّ العزّة معاودة القراءة عبادةً ساميّةً، كما جعل التدبّر ذروة هذه العبادة. وبما أنّه أعلى من شأن التدبّر وطالبنا به؛ ما يدلُّ على أن بعض مسالك هذا النصّ التي توصل إلى أعماقه وأسراره غير متوفرة بسهولة من القراءة الأولى.

وتنبثق أهميّة هذه الدراسة من تقديمها لمفاهيم ثلاثة متعلقة حصراً بالقرآن الكريم، وهي الاستدعاء والاستيفاء والمحور الدلالي، وقد تمّ انتخاب نماذج من آيات القرآن لتوضيح هذه المفاهيم. وفيما يخصّ منهج البحث؛ فهو وصفي تحليلي، يقوم على المقاربات التحليلية. أمّا عن الدراسات السابقة حول هذه المفاهيم، أو ما يقترب منها فلم يجد الباحثون من قدّم لمثلها، بيد أنّ ثمّة دراسات حامت بشكل أو بآخر حول الكلمات المفتاحية للبحث؛ فكان من أبرزها: "أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني"[1]،

و"السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي"[2]، و"أثر السياق في توجيه الدلالة القرآنية عند الشيخ حيدر حبُّ الله"[3].

ومن تساؤلات هذه المقاربة: ما الرابط بين الموضوعات المختلفة في السورة ومشهد مناداة موسى عند جبل الطور؟ لماذا جاءت مسارات المعنى على هذا النحو من الترتيب في سورة القصص؟ ما حاجة سياق سورة النمل للقصص الوارد فيه سواء أكان قصصا مكررةً أم غير مكررة؟

مدخل:

ينبغي قبل الولوج إلى الموضوع من أن نقف عند المفاهيم الثلاثة سابقة الذكر وهي من اجتهاد الباحثين؛ على أن فكرة المحور الدلالي (Semantic axis)، تتردد عند غير واحد من المعاصرين بمصطلحات مختلفة. بيد أنها لم تحظ بتعريف أو بسط وتوضيح؛ لهذا نقدّم عبر هذا المدخل تصورنا الخاصّ للمفاهيم على نحو من الآتي:

أولاً: المحور الدلالي: ونقصد به وفقاً لتعريفنا: حاصل ما تدلّ عليه موضوعات السورة مجتمعةً، فيكون هذا الحاصل عبارةً عن قضيّة عامّة، لها أصولها في الخطاب القرآني، ويصلح أن يكون عنواناً رديفاً للسورة. وما المحور الدلالي العامّ إلا مفهوم متطور له جذور قديمة ومفاهيم حديثة، تقترب منه من جهة التنظير لا التطبيق؛ فهو من أهمّ المؤطرات الكليّة التي تظهر للمتدبّر بجلاء خطوط الانتظام الكلّي في النصّ. إذ تظهر قدرته على لملمة شتات الاحتمالات التأويليّة في كونه يصوغ محوراً عاماً، تنتظم حوله موضوعات السورة، ويكون لهذا المحور حظٌ وافرٌ في الترجيح.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الباحثين يعدّون المحور الدلالي القاعدةَ التي تحبك خيوط الموضوعات كلّها، وتجعل منها لُحمةً بنائيّةً ودلاليةً موحّدةً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تعدد الموضوعات في نصّ ما، يحتاج إلى مسوّغ سياقي، يجعل لتباعدها الظاهريّ مرجعيّةً مسوغة من ناحية أولى، وأن مثل هذا المحور، لا ينشقّ عن العلاقات الدلاليّة إجمالاً من ناحية ثانية وفقاً لمن عرّف العلاقات الدلاليّة بمطلق معناها على أنها تجمع أطراف النصّ[4]، أمّا الباحثون؛ فيقصدون بالنصّ الكلي للقرآن الكريم. وليس ثمّة أداة توفر للباحث هذه الغاية أفضل من البحث الصحيح عن محور السورة. ويتمّ ذلك من خلال استخراج خيوط التقارب الخفيّة للموضوعات المتنوّعة وربطها بالعنوان (عتبة النصّ) والخطاب الرئيس الذي يطرحه النصّ، وعلاقة هذا الموضوع بغيره من الموضوعات الأخرى. ولأن فرضيّة المحور الدلالي خاصّة بالقرآن؛ فإن البحث عن المحور الدلالي يحتاج إلى تدبّره وإعادة النظر فيه.

وعليه؛ فإن تحليل الانتظام في الخطاب القرآنيّ؛ إنما يقوم على تعيين محور دلالي عام، يُستخلص عادةً من موضوعات السورة. ولا يكون هذا المحور - في المجمل – ضمن إجماع الباحثين؛ بسبب اختلاف زوايا النظر للسورة. وقد يكون للسورة الواحدة محاور عدّة، ويكون بين هذه المحاور علاقات دلاليّة قائمة على التقاطع أو التداعي.

وانطلاقاً من فكرة المحور الدلالي؛ فتأتي فكرة الاستدعاء السياقي لتفسّر لنا لماذا تمّ استدعاء هذه القصّة، أو هذا الجزء اليسير من القصّة على وجه التحديد، وهذا كلّه رهن بمعرفة المحور الدلالي.

ثانياً: الاستدعاء السياقي:

من الأهميّة بمكان التنويه بدايةً على أن مصطلح الاستدعاء السياقي (Contextual recall) مصطلح بكر للباحثين في هذه الدراسة، ويقصدون به: ذلك الداعي السياقي الذي يتطلّب تكرار حادثة ما، سبق ذكرها من باب مواءمتها لمحور سورة أخرى، وقد اقتضى التشابه والتداعي بين الموضوعات استدعاءَها؛ ما من شأنه أن يبرّر لنا جوانب التكرار التي وردت في القرآن، وسرّ جذب السور للموضوعات سواء أكانت جديدةً أم مكررةً من باب الانسجام والتناظر فيما بين وحدات الموضوعات داخل السورة، وقد يكون الاستدعاء لغايات المفارقة والتضادّ حيث يمثّل ظاهرةً نصيةً تقدّم تفسيراً لمسارات المعنى داخل الخطاب المخصوص، بيد أنها أكثر استعمالاً في موضوع تكرار القصص والأحداث. ويكون من أغراض ظاهرة الاستدعاء السياقي- في أحايين كثيرة - المواءمة والانتظام بين الوحدات المتشابهة للمعنى.

ويضاف لما سبق، قيام هذه الظاهرة على فكرة التشابه والتلاقي بين الموضوعات في السورة، حتى وإن كانت مكررةً؛ فثمّة حاجة في السياق، تقتضي استدعاء الموضوع أو القصّة من باب مواءمتها لبنية السياق، لكنَّ اللافت فيها أنها تأتي – أحيانا إذا ما تكررت - برواية أخرى، تكتنفها اختلافات لغويّة أو سرديّة عن سابقتها على الرّغم من وحدة الحدث وشخوصه؛ حيث نلفي لغة الخطاب يعتريها تغيير ما، أو تبدّل في وصف الأحداث وترتيبها.

ومن الغرابة بمكان، ليس نظرة بعضهم إلى هذا العدول بعين الريبة فحسب، بل إنكار بعضهم الآخر أية فوارق في ظاهر المكونات المكررة للقصص على الرّغم من تجلّي هذه الفوارق بشكل ظاهر وبارز؛ فينطبق على بعضها مصطلح (العدول)؛ ليس من باب العدول عن القاعدة النحوية أو الصرفية - كما هو مألوف - بل العدول عن الرواية الأخرى للقصّة. وهنا يكون الاستدعاء السياقي ذا كفاءة في معالجة هذه التغييرات التي تطرأ على بِنية الحدث المكرر؛ لهذا تتجلى عظمة القرآن الكريم في قصديّة العدول عن الرواية السابقة من باب انتظام الرواية اللاحقة وسياقَها الجديد الذي وردت فيه من ناحية، وحتى تنتظم والمحورَ الجديد من ناحية أخرى، علاوة على استكناه فوائد التكرار التي تمثلت في الوظيفة الدينيّة والأدبيّة على أن الوظيفة الأولى؛ إنما

تختص بتأكيد الحكم الشعري، أما الثانية؛ ففي "تأكيد المعاني وإبرازها وبيانها بالصورة الأوفق والأنسب والأقوم"[5]، ولعلّ الأخيرة، تقترب بعض الشيء من بُغية دراستنا.

وبناءً على ما سلف؛ فإن لوجود الفوارق بين حدث مكرر في سياقين - مبرراً من صميم انتظام القصّة المكررة من سياقها الذي تنتظم له؛ فالعدول حينها مقصود من حيث يشكّل علامةً على انصهار المفردات والتراكيب في وحداتها السياقيّة الجديدة لتتواءم مع انتظام جديد، يحتّم التغيير. ونؤمن بقصديّة العدول عن المكونات المكررة؛ لأسباب كثيرة قد لا نحيط بها كلها، ولكننا أوجدنا سبباً خاصاً بالانتظام قانوناً، يجري تغييراته الحتميّة على لغة الخطاب لتكون ذاهبةً في اتجاه انتظامها الذي وضع لها. ولا يكون هذا من باب التناقض بين روايتين مختلفتين لحدث واحد؛ بل من باب إضافة تفاصيل جديدة للرواية المختزلة في موطن سابق، والتي قضى محور السورة وانتظامها العامّ اختزالها واختيار مقاطع محدودة منها لتتواءم و مستدعياتها. ثم تأتي تكملة الحدث من زاوية أخرى؛ تمنح القارئ إضافاتٍ تتواءم بدورها مع الانتظام الجديد.

ثالثاً: الاستيفاء:

يأتي الاستيفاء (fulfillment) استخلاصاً دقيقاً لعناصر الانتظام العجيب بين موضوعات السورة على أنّه عنصر تجزيء تفكيكي مستوحى من عنصر المكونات النصيّة. إذ يحتّم الانتظام الكلّي للنصّ أن يكوّن لدينا أداة فاحصة تمكّن المتدبّر/ المتلقي من استجلاء حقائق الانتظام وهيئاتها وأنواعها وطرقها وأقسامها، ونؤكد مرة أخرة على أنّها أداة افتراضية من استنتاج الباحثين عن غير سابق إشارة لها لدى المتقدمين والمتأخرين. وعليه؛ فيمكننا تعريف الاستيفاء على أنّه: درجة قصوى من درجات الانتظام الكلّي، يُعنى بالنصّ القرآني حصراً، يتمثّل في حصر أنواع المحور العامّ واستيفائه، أو متعلقات هذا المحور وتفصيل حالاته وأشكاله وإحصاء احتمالاته على نحو إحصائي إعجازي متباعد عن بعضه في المحتوى، بيد أنّه مترابط مع بعضه في التكامل. وكان ذهب بعض الأئمة والفقهاء إلى تعريفه في مجال الحقوق والعقوبات على أنّه استيفاء صاحب الحقّ حقّه[6]، وليس هذا مقصدنا من الاستيفاء. والحقّ؛ فقد استعصى على الباحثين تعريف الاستيفاء تعريفاً شاملاً. ويمكن تقسيم الاستيفاء وفقاً للعلاقة المنطقيّة إلى ما يلي:

-الاستيفاء التكاملي (التكميلي): يعتمد على فكرة (الأنسب من جهة منطقيّة)

-الاستيفاء الاستقصائي: ويعتمد على تصوّر وجوب استحضار أنواع الشيء وأقسامه وحصر حالاته كلّها.

-الاستيفاء التماثلي: وهو حصر جوانب الشيء عبر استحضار عيّنة واحدة على هيّئة نموذج لفرعها الكلّي.

ويؤمن الباحثون بقصديّة الاستيفاء في النصّ القرآني، واستحالة فرصة وجوده في أي نصّ إبداعي بشري دونما قصديّة وتكلّف واصطناع. لكن النصّ القرآني المعجز، يفاجئنا - في ظلّ خوضه بالمتلقي دروباً متنوعةً من الموضوعات عبر مسارات مختلفة – بمؤطِرٍ من مؤطرات الانتظام، جاء بشكل عجيب متناثراً في طيّات النصّ؛ ليجعل من هذا الذي يبدو متباعداً ويكأنّه نصّ علمي تحليلي إحصائي، يكشف لنا الأنواع والأشكال والهيّئات والحالات والأسباب والنتائج الخاصّة بالمحور الدلالي العامّ للنصّ. وهذه عجيبة عظمى من عجائب القرآن الكريم. فلو افترضنا جدلاً أنَّ المحور الدلالي للنصّ هو (الشكل الهندسي المربع)، يتوجّب علينا - إذا كان تقديرنا للمحور الدلالي صحيحاً- أن نجد في النصّ ذكراً للأشكال الهندسيّة الأخرى المتمّمة للانتظام كالمثلث والمستطيل والدائرة، ولا يكون هذا بشكل علمي مرتب، بل نجده متباعداً عن بعضه ومتداخلاً مع انتظامات جانبيّة كثيرة على هيّئة شبكة. ويصبح لدى المتدبّر تفسير موضوعي لاستحضار كلمة على حساب أخرى. وعطفاً على المثال السابق مثلاً؛ فنفسّر سبب ميل القرآن الكريم إلى استعمال كلمة (دائرة) في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[7]؛ فإنك لن تجد غضاضةً في تفسير استعمالها على أنّه لغاية استيفاء عناصر الأشكال الهندسية.

واستناداً لما سبق؛ فإنَّ ثمّة محوراً عامّا لكلّ سورة تنتظم حوله الآيات، وأنَّ ثمَّة مستدعٍ؛ يقتضي تكرار بعض المعاني التي سبق ذكرها من باب مناسبتها لمعانٍ تُذكر للمرة الأولى. وهنا يدور الحديث في جانب منه حول التكرار في القرآن الكريم؛ ذلكم الذي اقتضته أسباب عديدة منها على وجه الخصوص (الانتظام) الذي يتم جزء منه من خلال المستدعي السياقي. وعليه؛ فلا بدّ للمتدبّر أن يصل إلى محور السورة؛ ليتسنى له على وجه الدقّة معرفة لماذا جاءت هذه القصص والتشريعات على هذا النحو، ولماذا هذه دوناً عن غيرها، وما العلاقة التي تربط بعضها ببعض؟

التطبيق:

المبحث الأول: استدعاء قصّة إحراق إبراهيم عليه السلام في سورة الصافّات:

وردت قصة إبراهيم في سورة الصافات، ولا بدّ من تحرير المحور الدلالي لهذه السورة حتى نتمكن من تفسير سبب الاستدعاء. وليس ثمّة اختلاف بين أهل التفسير[8] في أنَّ دلالة الصافات

هي ملائكة السماء. ويمكن أن ندعم هذا الرأي من آيات السورة نفسها استناداً إلى قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[9]، وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن الاختلاف في صيغة الجمع بين (الصافون) و(الصافات)، ويكمن الجواب في أنّه من ناحية جنس الملائكة فهم ليسوا إناثاً؛ فهم صافون. أمّا من ناحية هيّئة الاصطفاف؛ فهم يقفون في جماعات من الصفوف المتوالية ولكلّ منهم مقامه المعلوم.

ولا مريّة في إدراكنا من خلال هذا الاستهلال لسورة الصافات – إلى أنّها تتحدث عمّا يُعرف عند المتكلمين بـ (الأجسام اللطيفة) التي لا تُرى[10]. ويُدخلنا هذا الاستهلال في موضوع خلق الملائكة والأعمال التي تقوم بها. وجاء بعد الحديث عن الملائكة حديث عن الشياطين وقضيّة استراق السمع، فيقول تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[11]، ما يمهد السياق إلى تجاذبات عن هذه المخلوقات[12]. وقد أعقبت سورة الصافات حديثها عن الأجسام النورانيّة والنّاريّة بالتشبيه الذي حار فيه البلاغيون وهو قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[13]؛ ففي صورة طلع الزقوم مع رؤوس الشياطين محاور التقاء عديدة نحو: أن كلا من شجرة الزقوم والشيطان ملعونان بظاهر النصّ القرآني[14]. وهذا وجه من الانتظام لا نحسب أحدا سبقنا إليه على أن ثمّة مفارقةً حادةً بين طرفيّ الصورة نسوقها كالآتي: أن النّار تأكل الشجر، ولكن الزقوم شجرة فريدة، تنبت في النّار؛ فبدلاً من أن تتغذى عليها النّار وقوداً لها، تصبح جزءاً ملتحماً بالنّار، بل تتغذى على النّار، وتستمد طاقتها منها على الرغم من اختلاف ماهيّة كلاهما. أمّا الشيطان (طرف الصورة الثاني) المخلوق من النّار؛ فبدلاً من أن يكون جزءاً من النّار ويستمد طاقته منها وفقاً لتجانس ماهيّتهما، تأتي المفارقة من حيث يصبح الشيطان وقوداً للنار، وتتغذى عليه النّار وكأنه ليس جزءاً منها. وهذه أقصى حالات التغاير والمفارقة بين الماهيّة والمآل. فما هو في الأصل جزء من النّار يمكن أن يحرق الشجر، يحترق هو بالنّار. وما كان في الأصل وقوداً للنار يصبح جزءاً منها ويتغذى عليها؛ لذلك قال الله تعالى على لسان الجنّ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[15]. ولندقق في تحوّلهم لحطب مع أن أصلهم هو الذي يحرق الحطب. فلم يحمل التشبيه المقاربة الوصفيّة بالشكل فحسب، بل حمل المفارقة في البنية التصويريّة، فكان حقيقاً أن يُجعل رمزاً للبلاغة العالية وللدقّة في الانتظام القائم على المفارقة، علاوةً على ما بين طرفيّ

الصورة من تماثل في الشكل؛ فهما متشابهان في شكليّهما وفي المقابل متضادان في حقيقتيهما في واقع الدنيا والآخرة"[16].

وما يعنينا من سورة الصافات – وفقا لتقديرنا – إلا إظهار محورها الدلالي الذي تمثّل في تحوّل فيزيائيّة النَّار عن أصلها، وذلك اعتماداً على حقيقتيّ خلقِ الشياطين من النَّار وستعذّب بالنَّار، ووجود شجرة من مثل الزقوم في النَّار وكثير من المعطيات الأخرى. وإذا ما أمعنا النظر في السورة ذاتها؛ لنجد مسارات المعنى فيها موزعة حول الجنّ والملائكة بشكل لافت للنظر. وفي هذا الصدد؛ تمّ استدعاء جزء ملائم تماماً من قصّة إبراهيم الخليل لموضوع السورة ولمحورها الدلالي وهو: عندما قام إبراهيم عليه السلام بتحطيم آلهة قومه؛ ما أوجب عليه عقوبةً كبيرة، تمثّلت في الإحراق بالنَّار وعلى مرأى من الناس، بيد أنّ النَّار خرجت عن الفيزيائيّة من حيث لم تحرقه على الرغم من أن النَّار كانت جحيماً: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[17]. إذن يتمّ استحضار خروج النَّار عن فيزيائيتها عبر السّرد القصصي الذي ينتظم من المحور الدلالي.

وإمعانا في الانتظام العامّ لموضوعات السورة، يستدعي سياقها بعض الاعتقادات الوثنيّة، تخصّ أصليّ الجانّ والملائكة، إذ كانت العرب تعتقد أن الملائكة بنات لله – حاشا لله - أما الجانّ؛ فأنسباء لله – حاشاه -؛ لهذا جاء خطابه تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ... وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[18]، وكان جاء في التفسير: "عن مجاهد: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا) قال: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، فسأل أبو بكر: مَنْ أمهاتهنّ؟ فقالوا: بنات سَرَوات الجنّ"[19].

ولا يخفى على المتلقي الكريم في عموم السورة محور دلالي رئيس هو: التحوّلات الفيزيائيّة للنّار وعلاقتها بالكائنات الداخلة فيها من مثل الشياطين؛ وهي مخلوقة من نار تصبح وقوداً لها، وشجر يتغذى على النَّار وهو في الأصل غذاء لها، وإنسان مؤهل للحرق لم تحرقه النَّار بمؤدى تحوّل فيزيائيّ كبير. ونستطيع القول إن تشبيه (رؤوس الشياطين) كان محوراً مهما استدعى معه عدداً من الموضوعات على هيّئة المفارقة.

المبحث الثاني: استدعاء قصّة موسى عليه السلام في سورة الزخرف:

كان الاستدعاء السياقي مهما لدرجة كبيرة من أجل إظهار حالة التماثل بين المواقف، كما أنّه قد يتضمن حجاجاً عقليّاً، يتعاضد مع المحور الدلالي للسورة. ويدور محور سورة الزخرف العامّ حول (الزينة) بمختلف أشكالها والزخارف في الأبنية والأثاث، ويبدو هذا من الوهلة الأولى من

اسم السورة. كما أنَّ لها محوراً ثانياً، يتمثّل في المُحاجَّة العقائديّة بين الرسول وكفار قريش. وتذكر سورة الزخرف عدداً من التهم التي لفّقتها قريش؛ فجاء ردّ القرآن حجاجاً عقلياً؛ فمن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله؛ لهذا يعبدونها، فكان ردّ القرآن الكريم عليهم من خلال قضيّة/ ظاهرة اجتماعيّة، تمثّلت في كرههم للبنات. فكان من حججهم اتباعهم لآبائهم في العقيدة، فجاء ردّ القرآن من حيث مخالفة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر في العقيدة لدرجة أنّه تبرأ منه؛ أي الابن من الأب، بيد أنهم قالو بعد أن اشتد خناق الحجج عليهم: ﴿لَمَّا جَآءَهُمُ ٱلحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحر وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ لَولَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلقُرءَانُ عَلَىٰ رَجُل مِّنَ ٱلقَريَتَينِ عَظِيمٍ﴾[20].

وترصد لنا السورة أيضاً مقولة المشركين عن القرآن ووصفه له بأنّه سحر، واعتراضهم على شخصيّة الرسول عليه السلام بأنه ليس من أهل العظمة – وفقا لمقاييسهم - فلم يجدوا سوى أن ينتقصوا منه ومن رسالته، فقالوا عن القرآن الكريم إنه سحر؛ ما يدلل على اعترافهم المضمر بتأثرهم بالقرآن الكريم عند سماعه. كما رموا النبيّ بأنه ليس من أهل العظمة، ومن هنا نجد تحفّظهم على شخصية النبي جلياً في كونه ليس غنيا مترفا؛ فجاء الردّ على مطالب العظمة بأنَّ الترف المادي لولا أنه يمكن أن يجعل الناس يكفرون لكان للكفار نصيبٌ كبيرٌ منه، وفي هذا نقض لعلاقة العظمة بالهداية استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَلَولَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّة وَٰحِدَة لَّجَعَلنَا لِمَن يَكفُرُ بِٱلرَّحمَٰنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفا مِّن فِضَّة وَمَعَارِجَ عَلَيهَا يَظهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِم أَبوَٰبا وَسُرُرًا عَلَيهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخرُفا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَٱلأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلمُتَّقِينَ﴾[21] (الزخرف: 33-35).

ومن أجل زيادة اليقين عند الرسول الكريم؛ فقد استدعى السياق جزءاً من قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، وللجزء المستدعى خصوصية دقيقة في كونه ينتظم وينسجم تمام الانسجام مع موقف الرسول عليه السلام من قومه حيث نجد أن فرعون يسخر من موسى ومكانته من العظمة وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرعَونُ فِي قَومِهِۦ قَالَ يَٰقَومِ أَلَيسَ لِي مُلكُ مِصرَ وَهَٰذِهِ ٱلأَنهَٰرُ تَجرِي مِن تَحتِيٓ أَفَلَا تُبصِرُونَ * أَم أَنَا خَير مِّن هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِين وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * لَولَآ أُلقِيَ عَلَيهِ أَسوِرَة مِّن ذَهَبٍ﴾[22]. فهو يغترّ بعظمة ملكه، وينتقص من مكانة موسى عليه السلام من حيث يطالبه بأسورة من ذهب. فبدلاً من أن يكون الحوار مدعّماً بالحجج ابتدأه بالسخرية من العيب الخلقي المتمثّل في ضعف الإبانة في الكلام، ويشير هذا إلى إفلاس المحاجج؛ وهي (مغالطة الشخّصنة) المتمثّلة في

تجاهل الأفكار التي يقولها الشخّص ومهاجمته شخصياً. ويطابق استدعاء جزء من قصّة موسى عليه السلام حال أهل الشرك من قريش، وهو تجسيد لحال نبينا عليه السلام مع قومه. وقد انطلت عملية قياس الأفضل التي قام بها فرعون على قومه؛ فاستخفّهم فيها وأطاعوه وهي تقوم على الأموال والسلطان، وكأنما جاء موسى إلى فرعون وقومه ليدّعي دعوى بقوله: (عليكم أن تعبدوني أنا لأني أفضل من ربكم فرعون) فما كان جواب فرعون إلا أنّه الأفضل متجاهلاً الرسالة، بل وشرع يسخر من الرسول عليه السلام، وبالمثل صنعت قريش معه. ومن هنا نلمس دقّة الاستدعاء السياقي وارتباطه بالمحور الدلالي للسورة.

المبحث الثالث: استدعاء قصّة نوح في سورة الإسراء:

تتجلّى لنا هذه القصّة من خلال قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ * وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[23]. ويتمثّل مثل هذا التجلّي من خلال إعادة قصّة نجاة سيدنا نوح مستدعيا سياقيا دقيقا، وقد ذكر بعض المفسرين سببا لهذا التكرار على نحو ما نجد عند ابن كثير:" لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أَيْضًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يُقْرِنُ بَيْنَ ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ يَعْنِي التَّوْرَاةَ وَجَعَلْناهُ أَيِ الْكِتَابَ هُدىً أَيْ هَادِيًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا أَيْ لِئَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا أَيْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا دُونِي، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. ثُمَّ قَالَ: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ تَقْدِيرُهُ يَا ذُرِّيَّةُ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، فِيهِ تَهْيِيجٌ وَتَنْبِيهٌ عَلَى الْمِنَّةِ، أَيْ يَا سُلَالَةَ مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ تَشَبَّهُوا بِأَبِيكُمْ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً فَاذْكُرُوا أَنْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بِإِرْسَالِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم "[24].

ويبدو لنا سبب استدعاء قصة نوح من خلال الآتي: بداية الحديث عن الإسراء وهو إخبار عن حادثة خارقة للعادة، تمثّلت في الانتقال من الحرم المكّي إلى المسجد الأقصى، وذكر هذا المكان/ المسجد الأقصى، استدعى ذكر أحداث ذات علاقة مسيسة به من مثل دعوة موسى عليه السلام، فهي ذات ارتباط وثيق بهذا المكان؛ فقد كان الوجهة الأولى لبني إسرائيل بعد عبورهم الخارق للبحر؛ فكانوا نجوا بفضل ذلك العبور/ الانتقال، وفي المقابل هلك عدوهم بالسبب نفسه. ونجد في الربط بين حادثة الإسراء وعبور موسى عليه السلام البحر التقاءً لرحلتين خارقتين إلى وجهة مكانيّة

واحدة، فقد استدعتا هاتان الرحلتان رحلةً خارقة مشابهة؛ وهي رحلة سيدنا نوح عليه السلام ومَن حمل معه؛ فهي رحلة نجاة تتشابه مع عبور موسى عليه السلام من خلال البحر وما تبعها من هلاك المبطلين.

لقد استدعى الانتظام بين الرحلات الخارقة وقصة نوح عليه السلام تحديداً من الأنبياء؛ لأنّ عنصر الماء في رحلتيّ نوح وموسى عليهما السلام، كان وسيلة النجاة للمؤمنين كما كان وسيلة الهلاك للمبطلين على أنَّ ثمَّة رابطاً خفياً، يجمع بين الرحلات الثلاث الخارقة وهو: استيفاء طرق الترحّل جميعها، فتتضمن الرحلات أشكال التنقل كلَّها؛ وأولها: الرحلة عبر الجوّ وتمثّلها حادثة الإسراء، وثانيها: الانتقال عبر البرّ وتمثّله رحلة موسى عليه السلام، وثالثها: الرحلة عبر البحر ويمثلها نجاة نوح عليه السلام. وفي هذا استيفاء لطرق التنقّل كلّها (الجوي، البري، البحري) وفي هذا انتظام خفيّ في كون الرحلات خارقات، كما كانت متعلقةً بأولي العزم من الرسل. وندرك بمثل هذه الطريقة من الاستدعاء سراً من خيوط الانتظام بين موضوعات قد تبدو كما لو أنها متنافرة للوهلة الأولى.

المبحث الرابع: استدعاء قصّة اسحق:

قد يتطلّب الانتظام الكلّي والحاجة للمواءمة أحياناً إلى استدعاء حدث مكرر من أجل الربط بين الموضوعات؛ فيصبح الاستدعاء هنا من روابط اللُّحمة النصيّة ولا يُنظر إليه بوصفه حدثاً زائداً عن حاجة السياق. ومن أمثلة هذا قصّة الخليل إبراهيم عليه السلام عندما رزقه الله بإسحق بعد عهد طويل من النكاح؛ فهي قصة تكررت غير مرّة في القرآن[25]. وقد جاء تفصيلها في بعض الآيات، كما أجملت في آيات أُخر على نحو ما جاء في سورة مريم بمؤدى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ [26]؛ فإن لإعادة هذه القصّة مستدعياتٍ سياقيّةً قائمةً على الانتظام العميق[27] مع وحدات النصّ؛ إذا ما سلّمنا بأنّ المستدعيات السياقيّة ذات ارتباط وثيق بالمحور الدلالي للسورة، وذلك على النحو الآتي: لقد ابتدأ الحديث في سورة مريم عن ولادة نبيّ الله يحيى، وما تضمّنت هذه الولادة من أمر خارق للعادة بعد يأس الوالدين من الإنجاب. كما ورد فيها حديث عن ولادة نبيّ الله عيسى، وما كان فيها من خرق للعادة، تجسّد في محور السورة عن الولادة الإعجازية. من هنا استدعى حوادث الولادة التذكير بأمر ولادة إسحق؛ لأنها أيضاً حدث خارق للعادة، وتحاكي ولادة يحيى، إذ نجد في جواب زوج إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[28]. أمّا عن سبب اقتصار السورة على ولادة أسحق دوناً عن ولادة إسماعيل؛ وهو الابن الأكبر؛ فذلك لأن

ولادته لم تكن حدثاً خارقاً للعادة؛ فيمكن حدوثه لأي إنسان في ظلّ مقدرة أُمّه على الإنجاب بحكم سنّها، وهذا ما جعلها تفارق ولادة إسحق.

يُضاف إلى هذا أمر آخر منتظم مع ولادة يحيى وعيسى، يتمثّل في إقامة إسماعيل في مكّة المكرمة، وليس في الأرض المقدّسة مهد عيسى ويحيى عليهما السلام، فضلاً عن أن النبيَّين المخصوصين بولادتيهما الخارقتين هم من أبناء إسحق، لذلك اقتضى الأمر من باب الانتظام مع وحدات المعاني في السّياق - التي تتحدث عن شؤون الولادات الخارقة من امرأتين عجوزين عقيمين والثالثة عذراء تنجب بلا زوج، وعن مكان الولادات في الأرض المقدسة - وجب استدعاء قصّة إسحق دون إسماعيل.

ولمّا كانت الولادات الخارقة هي المحور الدلالي في النصّ؛ فأصبح الاستدعاء – هنا - ضرورةَ سياقيّة؛ تدعم تتابع وحدات المعاني الفرعيّة في الانتظام. وللتذّكير بفتنة الأولاد ونسيان الموت؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [29]، ثمَّ جاء التذكير بشناعة ادّعاء الولد لله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا*لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا*تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[30]؛ فلا التداعي المنتظم مع محور الولادات. كما أن فيه انتظاماً مع حال ولادة المسيح التي وقع فيها الادعاء بالبنّوة.

المبحث الخامس: تكرار مشهد مناداة موسى عند جبل الطور:

لقد توزّعت قصّة موسى على أكثر من ثلاثين سياق مختلف في ثلاثين سورة، وقد تكررت أجزاء من هذه القصّة كأكثر قصّة تكراراً في القرآن الكريم في مرحلتيه المكّية والمدنيّة على السواء. وعند النظر في قصّة موسى بشكل مجرد؛ فيمكننا تقسيمها إلى خمسة مشاهد أو محطات رئيسة، جرى استدعاؤها في سياقات عديدة بسبب حاجة تلك السياقات مواءمة وانتظاماً عبر استحضار النظير المشابه.

أولا: مشاهد قصّة موسى وقومه وعلاقتها بالسياقات التي وردت فيها:

1-المحطة الأولى: موسى في مصر قبل النبوّة من يومه الأول إلى يوم الخروج باتجاه مدين.

2- المحطة الثانية: موسى في مدين قبل النبوّة.

3- المحطة الثالثة: موسى في سيناء مشهد المناداة والتكليف بالنبوّة.

4- المحطة الرابعة: موسى في مصر بعد النبوّة: صراع مع فرعون من أجل الخروج ببني إسرائيل.

5- المحطة الخامسة: موسى خارج مصر بعد عبور البحر وغرق فرعون وجيشه.

وتجدر الإشارة بداية إلى أنّ لكلّ مرحلة منها طابعها الخاصّ من حيث الصراع، ويتناظر هذا بدوره ويتقاطع مع سياق التنزيل بالنسبة للقرآن الكريم والمراحل التي مرّت بها آخر الرسالات؛ لذلك جرى توزيع هذا المحطات على امتداد مسيرة الدعوّة الإسلاميّة. وتمّ استدعاء أجزاء من قصّة موسى؛ تنتظم مع طبيعة الحدث في الرسالة المحمديّة، ويمكننا تسمية هذا النوع من الانتظام بانتظام مكوّنات القصّة مع الأحداث الجارية زمن التنزيل. والحقّ؛ أنّ المشهد الثالث من قصّة موسى ما يعنينا وهو: مشهد موسى في سيناء المتمثّل في المناداة والتكليف بالنبوّة.

وعطفاً على ما أسلفنا؛ فقد حظي مشهد العودة عبر سيناء والتكليف بالنبوّة باهتمام بارز في القرآن؛ وقد جرى استدعاؤه مراتٍ عديدة في سياقات مختلفة على الرّغم من أنّها على مستوى الزمن، لا تساوي غير ليلة واحدة. أمّا الصراع في هذه المرحلة؛ فكان مع الظروف الجويّة الباردة في البداية، ثمَّ الصراع النفسي الذي داهم موسى فور تكليمه الله له وإلقاء العصا، حيث ولّى مدبراً ولم يعقّب. ولو تتبعنا السياقات القرآنيّة التي وردت فيها مشاهد من قصّة موسى؛ لأدركنا أنّ كثيراً من السور التي وردت فيها أحداث من قصّة موسى، قد اكتفت بعرض مشهد أو عدّة مشاهد منها ما يلائم سياق تلك السورة. أمّا السور التي اكتفت بالمشهد الثالث؛ وهو مشهد العودة والتكليف بالرسالة؛ فقد استقلّت سورة النمل وحدها بهذا المشهد دوناً عن غيرها؛ على أنَّ هذا المشهد قد تكرر غير مرة، لكن لم يأتِ مستقلاً، بل جاء بمعيّة مشاهد قبله أو بعده. ويلخص الجدول الآتي عدد المشاهد والسور التي تكرّرت فيها المشاهد:

المشهد	التكرار	السورة
الأول: الولادة والنشأة	2	القصص، طه
الثاني: اللجوء إلى مدين	1	القصص
الثالث: (المناداة)	5	النمل، القصص، الشعراء، مريم، طه.
الرابع: العودة إلى مصر والصراع مع فرعون	14	الأعراف، طه، الشعراء، مريم، النازعات، الذاريات، الزخرف، غافر، الفرقان، المؤمنون، الحج، الإسراء، هود، يونس.
الخامس: (الخروج والصراع مع اليهود) والتنقّل	7	البقرة، الصف، الكهف، إبراهيم، المائدة، النساء، طه.

سياقات مشهد المناداة واستدعاؤها في سورة مريم:

تزخر سورة مريم بأنواع من رحمة العباد الصالحين بعضهم ببعض من مثل رحمة الابن بوالديه، كما ورد على لسان يحيى، ورحمة الزوج بزوجته على نحو إسماعيل. بل إنّها تكاد تكون

سورة الرحمة؛ لكثرة ما ورد هذا الجذر اللغوي فيها حتى إنَّ اسم الله (الرحمن) تكرر في هذه السورة أكثر من أي سورة أخرى حيث بلغ ستة عشر تكراراً؛ إذا ما ألفيناه في سورة البقرة مرةً واحدةً فقط. وكثيرة هي أشكال الرحمات التي بين عباد الله الصالحين، والتي تؤدي الدور التكميلي لأشكال الرحمات الربانيّة التي تتابعت في هذه السورة.

وسيأتي الحديث عن الولادات وسورة مريم لاحقاً بناءً على محوريها الدلاليين: الولادات الإعجازية ورحمات الأقرباء؛ لأنّ الذي يعنينا المحور الثاني وهو: التركيز على رحمات الأقرباء بعضهم بعضاً، وقد استدعيت رحمة الله للأخ النبي من خلال شدّ عضده بأخيه النبي؛ وهذا استدعاء من باب الاستيفاء، وهنا لا يوجد أكثر انتظاماً مع هذه الحلقة من قصّة موسى وأخيه هارون؛ فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[31]، ولا ننس استهلال سورة مريم بمناداة زكريا ربه ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [32]، وهذا انتظام ثان، كما أنّها تحدّثت في أغلبها عن أنبياء بني إسرائيل وهذا انتظام ثالث، وكان الاقتصار على ذكر مشهد المناداة لموسى آخر نداء في السورة؛ تلك التي كثر فيها النداء؛ فابتدأت بنداء زكريا ربه، ثمّ وصف نداء عيسى لأمّه: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[33]، ثمّ نداء الله لزكريا: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾[34]، ثمّ نداء الله يحيى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ﴾[35]، ثمّ نداء بني إسرائيل مريم: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾[36]، ثمّ نداء إبراهيم أباه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾[37]، و﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّ﴾[38]، ثمّ وصف نداء الله موسى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ﴾[39]. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى المحور الثاني - الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً – يتمثّل في الولادات الإعجازية المتعلقة بأنبياء بني إسرائيل يطال موسى بحكم أن أمر ولادته وبقائه على قيد الحياة كان معجزةً.

جاء مشهد المناداة الثاني من خلال سورة النمل، وكان سبب استدعائه المواءمة والانتظام والاستيفاء مع التحوّلات الخارقة للكائن الحي، ووصف أنظمة الحكم بوصفها محورين دلاليين لسورة النمل؛ فأحد محوريها متعلق بشخصية الحيوان الخارق ضمن أنظمة الحكم الصارمة؛ لهذا نلفي هدهد سليمان الخارق، وحيّة موسى الخارقة، ونملة سليمان، وناقة صالح، فمن البدهيّ أن نسأل ما العلاقة بينها جميعاً؟ ستنغلق الإجابة على أنّها تمثل أنماط المخلوقات البرية: (الثديّات، الزواحف، الطيور، الحشرات)، فلو تمّ الاستغناء عند مشهد من قصّة موسى مع العصا – وكان تكرر خمس مرات - لانهارت منظومة الاستيفاء التكاملي التي عرضتها السورة.

ووفقاً للأسئلة المتوالدة؛ فسينبري سؤال لاحق: لماذا أُستدعي مشهد الدابّة التي تكلّم الناس؛ وهي من أشراط الساعة؟ فستكمن الإجابة في الانتظام مع الحيوان/ الشخوص الخارقة في السورة.

أما مشهد المناداة الثالث؛ فجاء في سورة الشعراء، وقد استدعته هذه السورة بشدّة؛ وذلك للتأكيد على حقيقة الوحي الذي نزل على رسولنا الكريم، وقد استدعى ذلك حتى يبتدئ الحديث عن طريقة تكليف موسى بالرسالة. يُضاف إلى هذا أن اسم السورة (الشعراء) وهم أصحاب الألسنة البليغة؛ ما استدعى طلب موسى من ربّه أن يبعث معه أخاه هارون نبياً، لأنّه أفصح منه لساناً. وهذان انتظامان واستدعاءان كافيان لحضور مشهد المناداة في سورة الشعراء حيث قال تعالى: ﴿وَإِذ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئتِ ٱلقَومَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَومَ فِرعَونَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرسِل إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُم عَلَيَّ ذَنب فَأَخَافُ أَن يَقتُلُونِ ... وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ * عَلَىٰ قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُّبِين * وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلأَوَّلِينَ * أَوَلَم يَكُن لَّهُم ءَايَةً أَن يَعلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسرَٰٓءِيلَ﴾[40].

ولا غرو أن تنطبق الحال نفسها على مشهد المناداة المستدعى في سورة (طه)؛ فتفتتح السورة مستهلها على ذكر القرآن وتنزليه وعدم الشقاء معه، وتستدعي طريقة إلقاء القرآن وتكليف الرسول بالدعوة - سلفاً مشابها لها؛ وهي طريقة إلقاء التوراة وتكليف موسى بها؛ فيقول تعالى: ﴿طه * مَآ أَنزَلنَا عَلَيكَ ٱلقُرءَانَ لِتَشقَىٰٓ * إِلَّا تَذكِرَة لِّمَن يَخشَىٰ * تَنزِيلا مِّمَّن خَلَقَ ٱلأَرضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلعُلَى *... فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾[41] مع الالتفات إلى تأكيد أُلوهية الله في سورة طه على نحو ساطع؛ ما استدعى ذكر أخطر مدعٍ للألوهية (فرعون) من خلال استدعاء قصّة موسى معه.

أمّا المشهد الرابع المتكرر من مشاهد المناداة؛ فجاء في سورة القصص؛ وهي ذات خطاب سردي تسلسلي في عمومها، وقد أُعلن محورها العام من مستهلها: ﴿طسٓمٓ * تِلكَ ءَايَٰتُ ٱلكِتَٰبِ ٱلمُبِينِ * نَتلُواْ عَلَيكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرعَونَ بِٱلحَقِّ لِقَوم يُؤمِنُونَ﴾[42]، ولا يخفى في هذا الموضع أنّه مشهد إخباري بالدرجة الأولى، لأنّ سياقه إخباري ودفّة الدلالة فيه محددة سلفاً من المستهلّ، بيد أن سياق التنزيل بالنسبة للسورة، جاء مناظراً لأحداث القصص؛ لهذا نزلت زمنياً قبل الهجرة في مرحلة صراع المؤمنين مع تجبّر أهل السلطة والمال الذين تتشابه مواقفهم وسخريتهم واستفزازهم مع أفعال فرعون. وقد انتهت السورة بمشهد نجاة موسى وفي المقابل غرق فرعون. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى

إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[43].

وبناءً على ما سبق؛ فنكون قد مررنا على تكرار مشهد المناداة في خمس سور، اكتفينا من قصّة موسى بهذا المشهد فقط؛ لأن ذلك يحتاج إلى كتاب مستقلّ بذاته، يرصد حالات الاستدعاء والتكرار كلّها وعلاقتها بالانتظام.

النتائج والتوصيات:

لقد خلصت الدراسة إلى أبرز النتائج الآتية:

1. يكمن إعجاز القرآن الكريم في انتظامه المتشعّب الذي يتجاوز الآية والسورة إلى كليّة النصّ القرآني إلى جانب نظمه.
2. تكفل معرفة محور السورة الدلالي تفسير مسارات المعنى داخل السورة نفسها.
3. يرتبط مفهوم الاستدعاء في القرآن بالمحور الدلالي للسورة ارتباطاً وثيقاً.
4. يفسّر مفهوم الاستيفاء سببي الاستدعاء والاختيار في القرآن الكريم.

وبناءً على النتائج السابقة؛ فتوصي الدراسة المهتمين بالوقوف على مفهوم التكرار في القرآن الكريم من حيث دقّة استدعائه ومراعاة محور السورة العام؛ ما قد يبرر للمتدبّر سبب توظيف التكرار واستدعائه.

المصادر والمراجع:

1. البيضاوي، عبدالله بن عمر، (1416هـ). **التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: عبد القادر العشا، دار الفكر، بيروت.
2. الحطاب، محمد بن عبدالرحمن، (1992). **مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل**، دار الفكر، بيروت، ط3، 1992.
3. خطابي، محمد، (1991). **لسانيّات النصّ – مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.
4. الخلوتي، إسماعيل حقي الإستانبولي، (د.ت). **تفسيرروح البيان**، دار إحياء التراث العربي، (دط).
5. الذنيبات، فايز، (2016). **الرؤية النصية (للتَّشْبِيْهِ الوَهْمِيّ) في القُرْآنِ**، بحث منشور في المؤتمر الدولي: البلاغة بين النّقد والأدب واللّغة- جامعة الطفيلة التقنية- 21 حزيران 2016.
6. الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد، (د.ت). **مفردات ألفاظ القرآن**، دار القلم، دمشق، (د.ط).
7. الزمخشري، محمود بن عمر، (1998). **الكشاف عن حقائق التنزيل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
8. السرخسي، محمد بن أحمد، (1422هـ). **المبسوط**، تحقيق: محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
9. الشيرازي، أبو إسحق إبراهين، (1995). **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

10. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (2000). **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1.

11. ابن عاشور، محمد الطاهر، (1420ه). **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1.

12. عبدي وشيرخاني وحنون ورشراش، مالك ومحمد وعايد وحسن، (2024). أثر السياق في توجيه الدلالة القرآنية عند الشيخ حيدر حبُّ الله، مجلة بحوث في اللغة العربية، جامعة أصفهان، إيران، ع30، ص19-36.

13. العزاوي، وضاح كافي، (2011). أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، مجلة كلية الإمام الأعظم الجامعة، العراق، ع13، ص85-132.

14. الغزال، حصة أحمد، (2006). **ظاهرة تكرار القصص في القرآن الكريم**، حولية كلية أصول الفقه، القاهرة، م23، ع23.

15. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (1998). **تفسير القرآن العظيم**، تعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، ط1.

16. يوسفي، إسماعيل، (2013). السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

Sources and references:

1. Al-Baydawi, A., (1416 AH). **Revelation and the Secrets of Interpretation**, edited by: Abdul Qadir Al-Asha, Dar Al-Fikr, Beirut.

2. Al-Hattab, A. (1992). **Mawahib Al-Jalil fi Sharh Mukhtasar Al-Khalil**, Dar Al-Fikr, Beirut, 3rd edition, 1992.

3. Khattabi, M., (1991). **Text Linguistics - An Introduction to Discourse Harmony**, Arab Cultural Center, Beirut, 1st edition.

4. Al-Khalouti, E., (D.T**). Interpretation of the spirit of statement**, Dar Revival of Arab Heritage, (edit).

5. Al-Thanibat, F., (2016). **The textual vision (of imaginary simile) in the Qur'an**, research published in the International Conference: Rhetoric between Criticism, Literature and Language - Tafila Technical University - June 21, 2016.

6. Al-Ragheb, A., (d. T.). **Vocabulary of the Words of the Qur'an**, Dar Al-Qalam, Damascus, (ed.).

7. Al-Zamakhshari, (1998). **Al-Kashshaf fi Haqiqat al-Tanzil**, edited by: Abd al-Razzaq al-Mahdi, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 1st edition.

8. Al-Sarkhasi, Sh., (1422 AH). **Al-Mabsut**, edited by: Muhammad Ismail, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st edition.

9. Al-Shirazi, A., (1995). **Al-Muhadhdhab fi Jurisprudence of Imam Al-Shafi'i**, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st edition.

10. Al-Tabari, (2000). **Jami' al-Bayan fi Interpretation of the Qur'an**, edited by: Ahmed Shaker, Al-Resala Foundation, 1st edition.

11. Ibn Ashour, M., (1420 AH). **Liberation and Enlightenment**, Arab History Foundation, Beirut, 1st edition.

12. Abdi, Shirkhani, Hanoun, and Rashrash, Malik, Muhammad, Ayed, and Hassan, (2024). **The effect of context in directing the meaning of the Qur'an according to Sheikh Haider Hoballah,** Journal of Research in the Arabic Language, Isfahan University, Iran, No. 30, pp. 19-36.

13. Al-Azzawi, Waddah Kafi, (2011). **The effect of the Qur'anic context on weighting between meanings**, Journal of the Imam al-A'zam University College, Iraq, No. 13, pp. 85-132.

14. Al-Ghazal, H., (2006). **The phenomenon of repeating stories in the Holy Qur'an**, Yearbook of the Faculty of Principles of Jurisprudence, Cairo, Part 23, No. 23.

15. Ibn Kathir, I. (1998). **Interpretation of the Great Qur'an**, Commentary: Muhammad Hussein Shams al-Din, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1st edition.

16. Yousfi, Ismail, (2013). **The context and its impact on directing the Qur'anic discourse in the book Adwa' al-Bayan fi Ihdāh al-Qur'an bi al-Qur'an by Al-Shanqiti, Master's thesis**, University of Kasdi-Merbah, Ouargla.

.

الهوامش:

1- العزاوي، وضاح كافي، (2011). أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، مجلة كلية الإمام الأعظم الجامعة، العراق، ع13، ص85-132.

2- يوسفي، إسماعيل، (2013). السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآني في كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

3- مجموعة باحثين، (2024). أثر السياق في توجيه الدلالة القرآنية عند الشيخ حيدر حبُّ الله، مجلة بحوث في اللغة العربية، جامعة أصفهان، إيران، ع30، ص19-36.

4- خطابي، محمد. (1991). لسانيّات النصّ – مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، ص286.

5- الغزال، حصة أحمد، (2006). ظاهرة تكرار القصص في القرآن الكريم، حولية كلية أصول الفقه، القاهرة، م23، ع23، ص22.

3- انظر: السرخسي، محمد بن أحمد، (1422ه). المبسوط، تحقيق: محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج2، ص106. والحطاب، محمد بن عبدالرحمن، (1992). مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل، دار الفكر، بيروت، ط3، ج2، ح314. والشيرازي، أبو إسحق إبراهيم، (1995). المهذب في فقه الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، ص306-349.

7. سورة التوبة: أية 98.

8- يقول البيضاوي في تفسيره لمعنى الصافات: "أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية، على مراتب". البيضاوي، عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: عبد القادر العشا، ج1، ط1، بيروت، دار الفكر، 1416هـ ج5، ص5.

9. سورة الصافات: أية 164-166.

10- يقول أحدهم:"إن الملائكة من قبيل الأجسام اللطيفة، فحضورهم لا يستلزم الرؤية...وكذا الجن من هذا القبيل" الخلوتي، إسماعيل حقي الإستانبولي، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، (د.ط) (د.ت)، ج10، ص355.

11. سورة الصافات: أية 6-9.

12- يقول ابن عاشور: "إن الصفات التي لوحظت في القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها؛ فالصافات يناسب عظمة ربها، والزاجرات يناسب قذف الشياطين عن السماوات، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضا، ويناسب زجرها الناس في المحشر. و{التاليات ذكرا} يناسب أحوال الرسول والرسل". ابن عاشور، التحرير والتنوير: ج23، ص6.

13. سورة الصافات: أية 62-66.

[14] - جاء في سورة الإسراء: ﴿**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾، وفي سورة (ص): ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

15. سورة الصافات: 97-98.

16 - انظر بحث الذنيبات، فايز، الرؤية النصيّة (للتَّشْبِيْهِ الوَهْمِيّ) في القُرْآنِ، المؤتمر الدولي: البلاغة بين النّقد والأدب واللّغة، جامعة الطفيلة التقنية، 21 حزيران 2016، ص8.

17. سورة الصافات: أية 6-9.

18. سورة الصافات: أية 150-158.

[19] - تفسير الطبري، ج21، ص121.

20. سورة الصافات: أية 30-31.

21. سورة الزخرف: أية 33-35.

22. سورة الصافات: أية 51-52.

23. سورة الإسراء: أية 1-3.

[24] - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، بيروت ج5، ص43.

[25] - انظر مثلا سورة هود: 70 وما يلها، وكذلك الحجر: 51، والذاريات: 24.

[26] - سورة مريم: أية 49.

[27] - لصاحب تفسير التحرير والتنوير رأي يفسّر اختصاص إسحق عليه السلام دون إسماعيل عليه السلام بالذكر، كما أن له رأيا في سبب تكرار الحادثة، يقول: "وإنما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل؛ فلم يقل: وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها أيضا إرضاء لربها ولزوجها... أما إسماعيل؛ فقد أراد الله أن يكون بعيدا عن إبراهيم في مكّة؛ ليكون جار بيت الله. وإنه لجوار أعظم من جوار إسحق ويعقوب أباهما" ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص51-52.

[28] - سورة هود: أية

[29] - سورة مريم: أية 77.

[30] - سورة مريم: أية 88.

[31] - سورة مريم: أية 51-53.

[32] - سورة مريم: أية 3.

[33] - سورة مريم: أية 24.

[34] - سورة مريم: أية 7.

[35] - سورة مريم: أية 12.

[36] - سورة مريم: أية 28.

[37] - سورة مريم: أية 43.

[38] - سورة مريم: أية 44-45.

[39] - سورة مريم: أية 52.

[40] - سورة الشعراء: أية 10-15، 97-192.

[41] - سورة طه: أية 1-4، 10.

[42] - سورة القصص: أية 1-3.

[43] - سورة القصص: أية 30-31.